قراءة في كتاب

دفاع عن الإسلام*

تأليف : المستشرقة الإيطالية لورا فيشيا فاغليري**

عماد الدين خليل***

مقدمة:

إن ما قدمه الغربيون عامه، والمستشرقون على وجه الخصوص، يتضمن الأبيض والأسود، إنْ على مستوى المنهج أو الموضوع، وليس كله سواد، بل إن الرجل منهم قد يتضمن كلامه في الوقت نفسه الأبيض والأسود معاً، لأسباب عديدة منها قوة الجذب في بنية هذا الدين عقيدة وشريعة وعبادة وسلوكا، ومنها الجهد ببعض المسائل، ومنها التأثيرات الذاتية والثقافية، إلخ. "إن العقل الغربي الحديث -كما يقول سيد هاملتون كب- يعسر علية بوجه خاص إن يقوم بمحاولة استكناه طبيعة المواقف الدينية لدى أناس تختلف نظرتهم إلى الكون اختلافاً بعيداً عن نظرة الغربي... ولذا أصبحت أحكامنا الدينية -نحن الغربيين- شديدة الاختلال."[1]

عشرات السنين ونحن نكيل التهم ونصبّ اللعنات على المستشرقين، هذا حق بشكل من الأشكال، إنه ردّ الفعل المناسب لركام من الأباطيل والأضاليل المرسومة بخبث وعناية، ولكن ماذا لو أضفنا إلى هذا جهداً آخر يسعى لمتابعة والتقاط شهادات التقويم الايجابية بحق هذا الجانب أو ذاك من جوانب الإسلام؟

---

* فاغليري، لورا فيشيا. **دفاع عن الإسلام**، ترجمة: منير بعلبكي، بيروت: دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٧٦م.

** باحثة إيطالية في التاريخ الإسلامي واللغة العربية، ومن آثارها: (قواعد العربية)، (الإسلام)، (دفاع عن الإسلام).

*** دكتوراه في التاريخ الإسلاميّ، أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية في جامعة الموصل/ العراق، مفكر وأديب: emadkhaleel@yahoo.com

[1] هاملتون، **دراسات في حضارة الإسلام**، ترجمة: إحسان عباس ورفاقه، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٤م، ص٢٣٥-٢٣٦.

إن هذه "الشهادات" -إذ أردنا الحق- تجيء بمثابة اعتراف حرّ، مدعم بالأدلة، لا يتضمن أي قدر من القسر أو الإكراه، بالقيمة المتألقة أو الفذة لهذا الدين.

البعض يرى أن اعتماد عدد من الشهادات "الايجابية" لهذا المستشرق أو ذاك،عن جانب ما من جوانب الإسلام، يعني في نهاية الأمر تزكية له، وربما تبرئة لأعماله التي تتضمن في الأعم الأغلب سيولاً من الشهادات "السلبية" المضادة، تقف نقيضه تماماً، ليس للمعطيات الإسلامية فحسب، بل لبداهاتها وقناعتها المعروفة كذلك.وهم من اجل تأكيد موقفهم، بعيدون إلى الأذهان عدداً من الشواهد التي تدين الفكر الاستشراقي وتدمغه بالمكر والتجاهل.

هذا صحيح، بل إن بمقدور المرء أن يشير إلى جُلِّ الأعمال الاستشراقية بوصفها شواهد سيّئة على الموقف الغربي من الإسلام، ولن يحتاج هذا إلى كبير عناء. بل إنني وأنا أتعامل مع هذه الأعمال خلال دراسات عديدة تتعلق بالفكر الاستشراقي، أو عبر تدريس مادة "مناهج المستشرقين" لطلبة الدراسات العليا، كنت أصل أحياناً حد الاشمئزاز.

ولكن، وكما هو معروف، فان لكل قاعدة شواذ , ونحن علينا أن نحسن توظيف هذا القليل النادر الذي يعكس بإعجاب ودهشة وانبهار، منظومة من القيم المتألقة لهذا الدين عقيدة وشريعة وعبادة وسلوكاً.

ولقد كان اختيار لورا فاغليري استجابة لهذا المطلب، وهي في عنوان كتابها تعرّف بمنهجها الذي ستعتمده في التعامل مع الإسلام: دفاع عن الإسلام.

سنتابع قراءة الكتاب ما أرادت فاغليري أن تقوله في سياقات خمسة:

١. القدرة على التغيير.

٢. مغزى الشعائر الخمس.

٣. الشريعة والحياة.

٤. التلاؤم مع الإنسان.

٥. البعد الأخلاقي في سيرة الرسول ﷺ.

فيما يجعل من (دفاع عن الإسلام) وثيقة قيّمة تمارس -بحق- دفاعاً موثقاً ورصيناً عن هذا الدين ضد أباطيل الخصوم.

أولاً: القدرة على التغيير

تتحدث الباحثة الإيطالية المعاصرة (لورا فيشيا فاغليري) في كتابها الشهير (دفاع عن الإسلام) الذي صدر عام ١٩٥٢م[٢] عن جوانب عديدة في بنية الإسلام، وملامحه، وقيمه الكبرى. وبإمكانية باحث متمرس تضع يدها على حشد من الميزات المتألقة في هذا الدين. وإذ كانت تتعامل معه من الخارج فإنها لا تملك نفسها من الانبهار، كمن يكتشف شيئاً عزيزاً، نادراً. الأمر الذي يمنح تحليلها جاذبية، ويكسب أسلوبها في التعبير عذوبة وتأثيراً.

لقد بدأت فصلها الأول بالحديث عن نشوء الإسلام وقدرته الفذة على التغيير؛ إذ تقول: "نشأ الإسلام، مثل ينبوع من الماء الصافي النمير، وسط شعب همجي يحيا في بلاد منعزلة جرداء، بعيدة عن ملتقى طرق الحضارة والفكر الإنساني. وكان ذلك الينبوع غزيراً إلى درجة جعلته يتحول وشيكاً إلى جدول، ثم إلى نهر، ليفيض آخر الأمر فتتفرع منه آلاف القنوات تتدفق في البلاد. وفي تلك المواطن التي ذاق فيها القوم طعم تلك المياه الأعجوبية، سويت المنازعات وجمع شمل الجماعات المتناحرة. وبدلاً من الثأر الذي كان هو القانون الأعلى، والذي كان يشدّ العشائر المتحدرة من أصل واحد، في رابطة متينة، ظهرت عاطفة جديدة، هي عاطفة الأخوة بين أناس تشدّ بعضهم إلى بعض مثل عليا مشتركة من الأخلاق والدين. وما أنْ أمسى هذا الينبوع نهراً لا سبيل إلى مقاومته، حتى طوق تياره الصافي العنيف ممالك جبارة تمثل حضارات قديمة. وقبل أن توفق شعوب تلك الممالك إلى إدراك مغزى الحدث الحقيقي، داهمها ذلك التيار، قاهراً البلاد، محطماً الحواجز، موقظاً بصخبه عقولاً وسنىً، منشئاً من أكبر عدد من الشعوب المتباينة، مجتمعاً موحداً."[٣]

---

[٢] فاغليري، لورا فيشيا. **دفاع عن الإسلام**، ترجمة: منير بعلبكي، بيروت: دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٧٦م.

[٣] المرجع السابق، ص٢١-٢٢.

لقد كانت موجات هذا الدين تنداح متسعة شيئاً فشيئاً لكي تغطي جزيرة العرب، وتمضي صوب العالم، وهي في انديا حها ذاك كانت تغسل وتستأصل كل التناقضات والشروخ والمتاعب والممارسات الخاطئة التي ناء بها كاهل العالم القديم، وتزرع بدلاً منها قيمها الجديدة... قيمها الإنسانية المتألقة، المناسبة تماماً لمكانة الإنسان في الأرض، ولطموحاته في الوقت نفسه.

لقد بدأ الأمر في جزيرة العرب حيث كان بمقدور المرء أنْ يقول: "إن أولى معجزات الدين الجديد كانت هذه: إنّ البلد الذي يظل طوال قرون وقرون ميداناً لمعارك موصولة يقتتل فيها الأخوة، قد عرف السلام والأمن آخر الأمر."[٤]

بعدها انطلق الإسلام، لكي يحقق أخوة الإنسان في الأرض كلها، ولكي يمنحها الأمن والسلام: "إن الآية القرآنية التي تشير إلى عالمية الإسلام بوصفه الدين الذي أنزله الله على نبيه ﷺ (رحمة للعالمين) هي نداء مباشر للعالم كلّه. وهذا دليل ساطع على أنّ الرسول ﷺ شعر في يقين كلّي أن لرسالته أن تعدو حدود الأمة العربية، وأن عليه أن يبلغ (الكلمة) الجديدة إلى شعوب تنتسب إلى أجناس مختلفة، وتتكلم لغات مختلفة."[٥]

والكلمة الجديدة كانت تعني تحرير الإنسان أينما كان، في الزمن أو المكان: تحريره وجدانياً واجتماعياً وإنسانياً، في العمق والعرض والطول؛ تحريره من سائر الطاغوتيات والصنميات التي كانت تثقل عليه، تأسره، وتشل فاعليته عن أن تقدم عطاءها، وطموحه عن أن يعبّر عن نفسه، وشوقه إلى الله عن أن يمضي دونما حواجز أو عقابيل. إنه "بفضل الإسلام هزمت الوثنية في مختلف أشكالها. لقد حرر مفهوم الكون، وشعائر الدين، وأعراف الحياة الاجتماعية، من جميع الهولات أو المسوخ التي كانت تحط من قدرها، وحررت العقول الإنسانية من الهوى. لقد أدرك الإنسان آخر الأمر مكانته الرفيعة... لقد حررت الروح من الهوى، وأطلقت إرادة الإنسان من القيود التي طالما أبقته موثقاً إلى إرادة أناس آخرين، أو إلى إرادة قوى أخرى يدعونها خفية. لقد هوى

[٤] المرجع السابق، ص٢٤.

[٥] المرجع السابق، ص٢٤-٢٥.

الكهان وحفظة الألغاز المقدسة الزائفون، وسماسرة الخلاص، وجميع أولئك الذين تظاهروا بأنهم وسطاء بين الله والإنسان، والذين اعتقدوا بالتالي أن سلطتهم فوق إرادات الآخرين، لقد هوى هؤلاء كلهم عن عروشهم. إنّ الإنسان أمسى خادم الله وحده، و لم تعد تشده إلى الآخرين من الناس غير التزامات الإنسان الحر نحو الإنسان الحرّ. وبينا قاسى الناس في ما مضى مظالم الفروق الاجتماعية، أعلن الإسلام المساواة بين البشر. لقد جعل التفاضل بين المسلمين لا على أساس من المحتد أو أي عامل آخر غير شخصية المرء، ولكن على أساس من خوفه الله، وأعماله الصالحات، وصفاته الخلقية والفكرية ليس غير."[٦]

وقد يتساءل المرء ها هنا: إذا كان الأمر أمر حركة تحريرية شاملة قادها ونفذها الإسلام، فماذا عن العبيد؟ ماذا عن ظاهرة الرّق التي عاصرت الإسلام، واستمرت بعد ظهوره وانتشاره؟

والجواب لا يعوز (لورا فاغليري)، التي تبدأ بالتذكير بأن حالة العبيد بين المسلمين هي أفضل مما يحب الأوربيون أن يعتقدوا، وأنه من غير العدل أن نقارن ما بين الرِّق في الشرق، والرِّق الذي كان قائماً مثلاً، منذ قرن واحد، في الولايات المتحدة الأمريكية، وتمضي إلى القول: "أي شعور إنساني رقيق تنطوي عليه [أحاديث الرسول ﷺ]... ونحن إذا اعتبرنا هذه الوقائع من وجهة نظر تاريخية، فإننا سوف نرى، حتى في هذا الحقل، العمل الإصلاحي الرائع الذي حققه رسول الله ﷺ، فهو لم يكتف بتقييد الرق (ففي حين كان ممكناً قبل الإسلام أن يفقد الرجل الحرّ حرّيته نتيجة لعجزه عن تسديد ديونه، لم يكن في ميسور أي مسلم أن يجعل من أي مسلم آخر عبداً رقيقاً) بل وضع للمؤمنين قواعد، بعضها إيجابي وبعضها سلبي، ووجه إليهم الدعوات للسير قدماً وتحرير الأرقاء جميعاً تحريراً تدريجياً في الوقت المناسب. ولا ريب في أن التأثير الخير لهذه العظات كان خليقاً بأن يؤدي إلى تحرير العبيد لو لم يكن الرق ذا جذور قوية راسخة في عادات جميع الأمم، لا الأمة العربية وحدها، ومواقفها من الشعوب المغلوبة

[٦] المرجع السابق، ص٤٥-٤٧.

أو شبه المغلوبة. ولقد حال الناس دون إنجاز هذا التحرير أيضاً، بدافع من عنادهم وتشبثهم، بعد أن أساؤوا تأويل كلمة الله، وعدّوها تفويضاً بالإبقاء على حياة الرق. لقد نص القرآن عدة مرات على أن تحرير العبيد هو الكفارة عن بعض الآثام.[٧] ويؤكد الحديث النبوي أن إعتاق العبد الرقيق هو أحب الأعمال إلى الله. وعلى هدي من روح القرآن ومن الأحاديث النبوية، أقامت عدة مذاهب إسلامية قواعد جعلت تحرير العبيد أمراً إلزامياً، أو ساعدت على تحقيقه في نشاط بالغ... وثمة نقطة أخرى أيضاً، فقد ألزمت الدولة الإسلامية نفسها بأن تساعد –من طريق أموال الزكاة الشرعية– أولئك العبيد الذي يحتاجون إلى عون يمكنهم من شراء حرّيتهم! إنّ الإسلام الذي لم يميز يوماً بين الأعراق أو الألوان، والذي اعتبر الأبيض والأسود، والبدوي والفلاح الحضري، والحاكم والمحكوم سواسية، لا من الناحية النظرية فحسب، بل من الناحية العملية أيضاً (والواقع أنهم جميعاً يتخالطون في الخيمة، وفي القصر، وفي المسجد، وفي السوق، من غير ما تحفظ ولا احتياط، وفي غير ما ازدراء أو غطرسة). نقول إنّ الإسلام لم يبح قط أي معاملة تتمّ عن احتقار للأرقاء... والتاريخ يقدم لنا أمثلة كثيرة عن أرقاء عهد إليهم في مناصب رفيعة مشرفة... وعن عتقاء احتلوا مناصب حكومية مرموقة، بل ارتقوا عرش الخلافة نفسه. وهنا يكون من الخير أن نتذكر أن محمداً ﷺ حرم أشد التحريم كل تشويه لأجساد العبيد، وأن عادة تكليف الخصيان بحراسة أجنحة النساء (أو ما يعرف بالحريم) لم تبدأ إلا في عهد الأمويين."[٨]

ثانياً: مغزى الشعائر الخمس

تتحدث (فاغليري) عن شعائر الإسلام الخمس، التي تمثل عصب العبادة الإسلامية وروحها، محذرة من التعامل معها من وجهة النظر الخارجية؛ لأن موقفاً كهذا "خليق

---

[٧] يُنظر: سورة النساء، الآية ٩٢، المائدة، الآية ٨٩، النور، الآية ٣٣، المجادلة، الآية ٣، البلد، الآية ١٣.

[٨] فاغليري، **دفاع عن الإسلام**، مرجع سابق، ص١٠٦-١١١.

به أن لا يقل سطحية عن إعجاب المرء بالأصداف من غير أن يدرك أنها حافلة باللآلئ النفيسة". وبدلاً من ذلك فانه يتحتم دراسة كل ركن "درساً دقيقاً لاكتشاف السرّ الذي يجعل في ميسور تلك الشعائر أن تظهر روح المؤمن وتساعدها على السموّ تدريجياً نحو الله، وعندئذ فقط نستطيع أن نرى أن لها غرضاً مزدوجاً؛ تمجيد الله من قبل عبيده، والتعبير عن شكرهم للنعم التي أسبغها عليهم."[٩]

إن هذه الشعائر الخمس تمنح المسلمين مساحة روحية ما منحها أي دين آخر في العالم، بهذا القدر من التنظيم والالتزام، وبهذه الإمكانية المزدوجة بين الاكتفاء، والتوغل العمقي في الممارسة باتجاه آفاق وأغوار لا نهاية لها، وذلك -بالتأكيد- أمر مرهون بقدرات المؤمن وطموحه للتحقق الروحي، انسجاماً مع واقعية الإسلام، ورفضه الصيغ غير الممكنة في التعامل بأنماطه ومستوياته كافة.

تبدأ (فاغليري) حديثها عن الشعائر، بالصلاة؛ قاعدة التعبّد الإسلامي، وشعاره اليومي، محاولة أن تكتشف الأبعاد والخصائص الأساسية لهذه الممارسة التي تطبع حياة المسلمين أفراداً وجماعات وتصلهم بالله، فما أن "يدعو المؤذن جماعة المؤمنين إلى أداء أول واجباتهم الدينية: الصلاة، حتى يذكروا، مهما كانوا منغمسين في شؤونهم الدنيوية، بخالقهم. إنهم يستهلون هذه الشعيرة بتمجيد الله، ويختمونها برفع تحياتهم إليه. إنهم يشعرون بالطمأنينة دائماً في حضرته. وهم إذ يذلّون أنفسهم بالسجود، إنما يعبّرون عن خضوعهم المطلق للقوة الإلهية. إنّ لكل من الكلمات والأعمال في الصلاة الإسلامية معنى خاصاً، ولكنه ليس من العمق بحيث يعجز العقل الإنساني العادي عن استيعابه. وليس هنا مجال شرح هذه المعاني. من أجل ذلك نجتزئ بالنصّ على أن الصِّفة الانضباطية لمختلف الحركات التي ترافق الكلمات تساعد على إبقاء أفكار المصلي مركزة وراء عالم الجسد، وتمكنه من التعبير عن ولائه وتقديم شكره على الهبات الإلهية على أعمق وجه. إنّ التوجه نحو مكة ليذكر العالم الإسلامي دائماً بالموطن المجيد الذي شهد ولادة هذا الدين التجدّدي، وهو مركز مقدس تدور حوله في

[٩] المرجع السابق، ص٦٥.

جميع الأوقات عواطف المؤمنين الدينية، وقد اتحدوا كلهم في عبادة الإله الواحد. إنّ الله لا يبالي بالأداء الشكلي للشعيرة الدينية، ولكنه يطالب المؤمن بالعبادة الصادقة الصادرة (من) الفؤاد... فليس من شروط صلاة المسلم أن تُؤدّى في معبد، لأن أيما مكان في الأرض، شرط أن يكون نظيفاً، هو قريب إلى الله، وبالتالي ملائم للصلاة. وليس المسلم في حاجة إلى الكُهّان ولا إلى القرابين ولا إلى الطقوس، لكي يسمو بقلبه إلى خالقه. والشرط الوحيد الذي ينبغي توافره في الصلاة لكي تكون مقبولة هو طهارة الجسد، التي تعني أيضاً طهارة النفس وطهارة الثياب والمكان... ولصلاة الجمعة المؤلفة من خطبة ومن صلاة تُؤدّى على نحو جماعي، مزاياها وأهميتها الخاصة أيضاً. إنّ هذه الصلاة بجمعها المسلمين في شعيرة واحدة قوامها الإذعان والخضوع لله، تشعرهم أنهم جميعاً مخلوقاته، ومن هنا فهم جميعاً أخوة. وما تفرضه هذه الصلاة على المؤمنين من اتّباع الإمام، يخضعهم لخبرة ما من الانضباط والطاعة. وأخيراً فإن الإمام يفتح قلوبهم، (من) طريق الخطبة، ويرتفع بها نحو الله."[١٠]

أما الصيام فإنه "عمل قوامه الانضباط والرحمة والشفقة. إنه يقتضي المؤمن اجتناب جميع ملذات الجسد خلال مدّة بعينها. إنه يعلّمه لجم شهواته... وهو في حمله على إدراك ما ينعم به من آلاء، يعمق اعترافه بفضل الله عليه."[١١]

وأما الزكاة فإنها إذ تذكرنا بالأهمية الأخلاقية والاجتماعية التي ينطوي عليها تقديم الصدقات، التي اعترفت بها جميع الأديان الكبرى إلى حد ما، فإن أمرها في الإسلام يختلف، ذلك أن الإسلام "يتمتع وحده بالمجد المتمثل في جعل الصدقة إلزامية، ناقلاً تعاليم المسيح [عليه السلام] إلى دنيا الأمر، ومن ثم إلى دنيا الواقع. فكل مسلم ملزم، بحكم القانون، بأن يخصص جزءاً من ثروته لمصلحة الفقراء والمحتاجين، إلخ. وبأداء هذه الفريضة الدينية يختبر المؤمن حسّاً أعمق من الإنسانية، ويطهر روحه من الشُّحّ."[١٢]

---

[١٠] المرجع السابق، ص٦٥-٦٨.

[١١] المرجع السابق، ص٦٨-٦٩.

[١٢] المرجع السابق، ص٦٩.

وعندما تبلغ الحج، فإنها تجد أن من طبيعة القوى العميقة المكنونة فيه "أن تتكشف عن حكمة كاملة، فليس في استطاعة أحد أن ينكر الفائدة التي يجنيها الإسلام من اجتماع المسلمين السنوي في مكان واحد يسعون إليه من مختلف أرجاء العالم... كلهم يتوجهون نحو الكعبة المقدسة لمجرد التماس الغفران من الله الرحمن الرحيم، وهم إذ يلتقون في مثل ذلك المكان لمثل هذا الغرض إنما ينشئون صلات جديدة من المحبة والأخوة. مرة واحدة في حياة المسلم على الأقل تلغى الفروق كافة بين الفقير والغني، بين الشحاذ والأمير، إلغاءً تاماً. ذلك أن كل حاجّ مسلم يلبس، خلال أداء تلك الفريضة المقدسة، الثياب البسيطة نفسها، ويخلف وراءه حلاه الشخصية، ويتخذ لنفسه شعاراً واحداً ليس غير، هو كلمة (الله أكبر)! والشعائر التي يتعيّن على الحجاج أداؤها توقظ في أنفسهم ذكرى الأنبياء والآباء العظام الذين عاشوا في المواطن نفسها خلال العصور السالفة. إنها تعيد إلى الحياة أعمال إبراهيم، مؤسس الدين الخالص، وأعمال ابنه إسماعيل [عليهما السلام] وزوجته هاجر. وهي توقظ في الحاجِّ النزعة إلى تقليدهم في تعاطفهم وفي خضوعهم لمشيئة الله."[١٣]

ثالثاً: الشريعة والحياة

لكن هذه الممارسات الشعائرية في الإسلام، على امتدادها طولاً وعرضاً وعمقاً، لا تعني الدين كله... فهنالك قبالة الإسلام: الحياة بكل دقائقها وتفاصيلها ومطالبها وضغوطها وزواياها ومنحنياتها. وإذ كان هدف الإسلام أن يحتوي الحياة وينظمها وفق منظوره المتميز، المستمد من الوحي والوجود معاً، فإن لنا أن نتصوّر كيف تكون الشعائر مساحة فحسب، في خارطة هذه الحياة الواسعة المتشعبة العريضة... فالشريعة، وهي القانون الإسلامي، كما تقول (فاغليري): "ليست وقفاً على الشعائر والطقوس. إنّ جميع مظاهر الحياة الجماعية والشخصية خاضعة لأحكامها، وإنها لتهدف إلى ربط

[١٣] المرجع السابق، ص٧٠-٧١.

كل عمل من أعمال الفرد بواجباته الدينية. إنّ جميع فروع القانون تتمثل في الشريعة الإسلامية."[١٤]

وتقف قليلاً عند مبدأ الإجماع الذي يمثل أحد المصادر الأساسية للحركة التشريعية في الإسلام، فتعدّه "حجر العقد في تطور الإسلام التاريخي، والقوة التطورية في نموه أيضاً "، "فلقد أجاز للقوانين القائمة بين الشعوب غير العربية الأصل، إن لم تتعارض مع شريعة الله، أن تصبح جزءاً من الشرع الإسلامي... وبفضل الإجماع تُقبِّل الإسلام، وَدُمِج، وأكمل قوانين كانت قائمة قبل بعثة محمد ﷺ بزمن طويل."[١٥]

كما أنها تجد في الحدود الإسلامية، أو (العقوبات) الحكمة البالغة بخلاف العديد من المفكرين الغربيين الذين حاولوا أن يجدوا فيها الثغرة التي يعلنون من خلالها إدانتهم لقسوة هذا الدين!! فإذا "تأملت، من وجهة نظر منع الإجرام، في العقوبات القاسية المفروضة على من يرتكب جريمة القتل، أو الظلم والأذى، أو الفسوق، أو الوشاية، أو السُّكر، أو السرقة واللصوصية، تشعر بأنها حكيمة جداً، وبخاصة إذا أردفت بالتمجيد القرآني المتكرر للصفح والمغفرة، كشيء مستحب عند الله، والاعتدال في المطالبة بالدم ثمناً للجريمة، وفي دفع التعويضات. وهذه العقوبات ينبغي أن تدرس أيضاً على ضوء المبدأ الأساسي في الشرع الإسلامي، ذلك المبدأ القائل بأنه، في موضوع الخروج عن طاعة الله، يتعين على المؤمن أن يبذل كل ما يستطيع من جهد لاجتناب إنزال العقوبة بالآثم. لقد أقام الله [سبحانه] علاقته مع الناس على أساس الرحمة والرأفة. وأخيراً ينبغي أن ينظر إليها على ضوء الشروط الكثيرة التي تجعل من العسير جداً، من الناحية العملية، تطبيق جميع العقوبات المنصوص عليها في القرآن تطبيقاً حرفياً."[١٦]

ولا يفوت (فاغليري) وهي تتحدث عن الشريعة الإسلامية أن تؤشر على واحدة من أهم خصائص هذا الدين، وأشدها خطورة، وأكثرها حضوراً، تلك هي التلاحم

---

[١٤] المرجع السابق، ص٩٤.

[١٥] المرجع السابق، ص٩٥-٩٦.

[١٦] المرجع السابق، ص١١٢.

الوثيق بين الدين والدولة... الارتباط المحتوم إذا ما أريد للدين أن يتحقق على أرضية الواقع بمقتضياته وأبعاده كافة. فالإسلام "هو في أكمل المعاني دين ودولة. فبالإضافة إلى أنه حمل رسالة الله إلى الإنسان، قرر حقوقاً وواجبات أيضاً، وأدرك أنّ السُّلطة لابد منها لرعاية تلك الحقوق والواجبات. ولكن الخليفة ليس هو، في نظر المسلم، رئيساً دينياً، إنه ليس معصوماً عن الخطأ. وهو لا يزعم أنه يتلقى الوحي من الله، ولا يتظاهر بأنه قادر على تفسير القرآن والحديث تفسيراً ملزماً. ولكي يقيم العدل، يتعين عليه أن يكون قادراً على أن يفهم مصدري التشريع هذين فهماً كافياً يمكنه من أن يرى الفرق بين الحق والباطل، ولكنه مثل سائر المسلمين في فهمه لكتاب الله المقدس. وهو يطاع ما دام ملتزماً الحدود التي رسمتها الشريعة له. أما إذا تخطى هذه الحدود، فعندئذ يكون لرعاياه الحق في إعادته إلى الطريق القويم، في تحذيره، حتى إذا لم يبال بكلمتهم كان لهم الحق في انتخاب خليفة جديد بدلاً منه... فالخليفة إذن هو، من وجهات النظر جميعاً، حاكم مدني وليس حاكماً دينياً، يستمد سلطته من الله [ويملك] على رعاياه، نتيجة لإيمانهم، حق الطاعة على نحو محتوم. ففي الإسلام سلطة دينية ليس غير، إذا كان في استطاعتنا أن نطلق هنا اللفظ على سلطة قوامها القدرة التي منحها الله جميع المسلمين، من أحقرهم إلى أرفعهم، على تشجيع المؤمنين على اتّباع سبيل الخير، واجتناب سبيل الشر. إنّ القاضي والمفتي، وشيخ الإسلام، لا يتمتعون إلا بسلطة مدنية؛ لأن أياً منهم لا يستطيع أن يفرض سلطته على نحو يتعارض مع إيمان أحد من إخوانه في الدين."[١٧]

رابعاً: التلاؤم مع الإنسان

وتكاد تكون المساحة الأوسع من دراسة (فاغليري) للإسلام، تنصب على خصيصة أخرى لا تقل أهمية، تلك هي تلاؤمه مع الإنسان، واستجابته لمطالبه كإنسان، وقدرته على احتواء سائر جوانب ومعطيات التجربة البشرية، فيما لم تبلغ

[١٧] المرجع السابق، ص١٢٩-١٣٠.

المذاهب الوضعية أو الأديان المحرفة، عشر معشاره، بل فيما عجزت تلك المذاهب والأديان عن تنفيذه؛ لأنها أبحرت ابتداءً في الطريق الخاطئ، فتعاملت مع هذه الجزئية أو تلك فحسب، وأهملت أو كبتت أو ألغت اعترافها بالجزئيات الأخرى في التكوين الآدمي المتشابك والمعقد.

إن (فاغليري) تتساءل منذ البدء وكأنها تريد أن تعثر على الجواب: "أية قوة أعجوبية تكمن في هذا الدين؟ أية قوة داخلية من قوى الإقناع تنصهر به؟ من أي غور سحيق من أغوار النفس الإنسانية ينتزع نداؤه استجابة مزلزلة؟"[١٨]

والجواب يكمن في مزايا وخصائص شتى يتفرد بها هذا الدين، وقد مررنا ببعضها في الصفحات السابقة، لكن هذه ربما تكون المفتاح للأمر كله: تلاؤمه مع الإنسان.

ومن ثم نجد (فاغليري)، عبر صفحات كتابها، تتوقف بين الحين والحين عند هذه الميزة المتفردة، التي تجعل الاستجابة لنداء الإسلام تتحقق بتلك الطريقة "الأعجوبية" كما تسميها المؤلفة نفسها.

وهذا التلاؤم يرجع ولا ريب إلى عدد من الخصائص التي ركّزها الله سبحانه في نسيج هذا الدين وتكوينه، من أجل أن يتحقق بالنتيجة إياها.

هناك –مثلاً– الوضوح، وتجاوز التعقيد الذي وقعت في إساره أديان ومذاهب أخرى "فبينا نجد جميع الأديان الأخرى تقدم إلى أبنائها حملاً ثقيلاً من العقائد التي لا يستطيعون حملها وفهمها، نرى الإسلام ذا سهولة معجزة وبساطة نقية كالبلور. وكان ذلك سبباً آخر أيضاً في انتشاره السريع أبان الفتوح الأولى بين أناس غرقوا في اضطراب روحي عميق بسبب من الغموض الذي يكتنف بعض معتقداتهم الدينية. وهو أيضاً السبب في انتشاره الموصول اليوم بين الشعوب غير المتحضرة في آسيا وأفريقيا؛ لأن الإسلام قادر على النفاذ إلى أعماق نفوسهم من غير ما لجوء إلى شروح مطولة، أو عظات معقدة."[١٩]

---

[١٨] المرجع السابق، ص٤٠.

[١٩] المرجع السابق، ص٦٠-٦١.

هناك السهولة واليسر ومراعاة قدرة الإنسان على الاحتمال؛ إذ "إن الله لم يفرض على الإنسان مجموعة من القوانين يعجز عن احتمالها، ولم يفرض عليه في أي من الشعائر، قواعد جامعة قاسية لأنه يريد بالناس اليسر."[٢٠]

وهناك التقييم المؤكد للحياة الأرضية وعدّها طريقاً إلى الآخرة، في وقت حكمت فيه الأديان الأخرى عليها بالنفي، وأعلنت ضدها الحرب فأصابت المؤمنين بازدواجية ما أنزل الله بها من سلطان: "إن من الخير أن نشير إلى عقيدة (تعتبر) حافزاً إلى التمسك بأهداب الفضيلة أقوى من أي ترغيب آخر، نعني العقيدة القائلة بأن هذه الحياة الأرضية تحمل في ذات نفسها بذرة الحياة الآخرة، وأن أيما عمل يقوم به المرء في دنياه هذه سوف يساعده على بلوغ السعادة القصوى في دار الخلود، وأن طهارة القلب والعمل الصالح ضروريان للفوز برضا [الله سبحانه]، وأن كل امرئ سوف يجد، حين يواجه الله يوم القيامة، ما عمل من خير أو شرّ محضراً... ."[٢١]

هناك الاعتراف بالحاجات الجسدية للإنسان، ومحاولة تطمينها، دون أي قدر من التحقير أو الكبت، بل على العكس، فإن ممارسات كهذه ترتفع في المنظور الإسلامي لكي توازي مطالب الروح، فتكون هي الأخرى فرصة للتحقق الإيماني في هذا العالم: "إن الإسلام لا يبالي بالزهدية أو النسكية بتعذيبها العقيم للجسد، وما تنطوي عليه من ضروب الحرمان غير الضرورية... وفيما يتصل بالزواج لا تطالب السُّنة الإسلامية بأكثر من حياة أمينة إنشائية يسلك فيها المرء منتصف الطريق، متذكراً الله من ناحية، ومحترماً حقوق الجسد والأسرة والمجتمع وحاجاتها من ناحية ثانية... والتبتل الصارم موضع نقد قاسٍ في الإسلام، وهو يتنافى مع السُّنة التي أقامها محمد ﷺ، الذي حث أتباعه على الزواج."[٢٢]

---

[٢٠] المرجع السابق، ص٧١.

[٢١] المرجع السابق، ص٨٠-٨١.

[٢٢] المرجع السابق، ص٨٨-٨٩.

هناك الشمولية التي تجعل المنتمين لهذا الدين يجدون الاستجابة لمطالبهم كافة، فيحصلون على توحدّهم عبر نشاط، هو في كل تفاصيله متعاشق مع انتمائهم الديني: "إن الناس في حاجة إلى دين، ولكنهم يريدون من هذا الدين، في الوقت نفسه، أن يلبي حاجاتهم، وأن لا يكون قريباً إلى عواطفهم فقط بل أن يقدم إليهم، أيضاً، الطمأنينة والسلامة في هذه الحياة الحاضرة وفي الحياة الآخرة معاً. والواقع أن الإسلام يفي بهذه المطالب على الوجه الأكمل، ليس لأنه (مجرد) عقيدة، ولكنه -إلى ذلك أيضاً- فلسفة حياة. إنه يعلم التفكير الصائب، والعمل الصالح، والكلام الصادق، وهو لهذه الأسباب يتخذ سبيله إلى عقل الإنسان وقلبه في غير عسر."[٢٣]

هناك، وهذه مسألة تقف عندها (فاغليري) طويلاً، التأكيد على المسؤولية الخُلُقية بوصفها حجر الزاوية في السلوك الفردي والجماعي، وترتيب سلّم القيم بما يتلاءم مع قدرات الإنسان ويراعي نقاط ضعفه، فضلاً عما تتميز به هذه القيم في الحياة الإسلامية من إلزام يجعلها أمراً متحققاً وممارسة منظورة بأكبر قدر من الانضباط والحرص على التنفيذ، لكونها ترتبط أساساً بالأوامر الإلهية وبالأسس العقدية التي ترسمها وتغذيها. "إن الإسلام لم يكن قط عقبة في سبيل الكمال الخلقي. ليس هذا فحسب، بل لقد وفق قبل أي دين آخر -إذ كان يملك في ذات نفسه قوة فعالة موجهة نحو الأفعال الحميدة- إلى تهذيب الناس والارتفاع بهم نحو الله. وإنما نجح الإسلام لأنه لم يكن أقل اهتماماً بالمسؤولية الأخلاقية عند أفراده من الأديان التوحيدية الأخرى، التي اعترف محمد ﷺ بأن أنبياءها إخوانه، ولأنه كان في بعض النواحي أكثر عناية بهذه المسؤولية؛ إذ أدخل في حسابه الضعف البشري ودعا أتباعه إلى مثل عليا غير بعيدة عن متناولهم. فالفضائل نفسها التي تقدمها اليهودية والنصرانية بوصفها الغاية القصوى لحياة الإنسان الأخلاقية، لا يقدمها الإسلام كمثل عليا فحسب، بل يأمر بها كمثل عليا أيضاً... والآيات القرآنية التي تؤكد على العمل الصالح تعد بالآلاف."[٢٤]

---

[٢٣] المرجع السابق، ص٩٠.

[٢٤] المرجع السابق، ص٧٦-٧٧.

أما الأحاديث النبوية فإنها "تحمل إلينا تحديداً للرحمة والإحسان ليس أجمل منه، وهي تردف ذلك بتحديد ليس أدق منه للمفاهيم الأخلاقية."[٢٥]

ومرة أخرى فإن الإسلام "فيما يدلّ المرء من خلال القرآن والسُّنة على الطريق إلى الفضيلة، لا ينسى حاجات الطبيعة البشرية.. وحين يقدم إلى الإنسان مجالاً أخلاقياً يستطيع أن يفرغ إليه في حال يأسه، فإنه لا يذهب إلى ما وراء حدود الواقع، ولا يعطي أصحابه مثلاً أعلى في الفضيلة يعجزون -ما خلا قلة مختارة منهم- عن احتماله. لا، إنه يقيم بدلاً من ذلك قواعد للحياة سليمة تثبت عند وضعها موضع التطبيق أنها قواعد عملية أصيلة رائعة. إذ إنه يقدم إلى المؤمنين نموذجاً من التماسك والاستقامة لا ينحرف عن ناموس الحياة، بل يلزم عمود الطبيعة الإنسانية، ويدخل في حسابه مطمح المرء الحق إلى سعادة قويمة. ليس هذا فحسب، بل إنه -وهو البعيد عن إحداث أيما اختلاف بين حياة الفرد الدينية وسلوكه في الحياة- يتطلع أيضاً إلى خلق مجتمع يكون الإنسان عضواً فيه، وخادماً مخلصاً من خدم الله في وقت معاً."[٢٦]

هناك الضوابط المحدودة والقيود المدروسة التي شاءت حكمة الله أن تضعها في طريق المنتمين للإسلام، تحذّرهم فيها من المخاطر والمزالق وتبعدهم عنها، فيما لم تستطع اكتشافه وتقدير حجم الخسائر المتأتية عنه أشد المذاهب الوضعية إحكاماً وشمولاً، بل حتى أكثر الأديان المحرفة دعوة للالتزام بالقيم والطهارة الروحية: "إن القيود التي فرضها الإسلام على أتباعه في موضوع التمتع بالحياة قليلة، يتساوى فيها الجميع، وتنمّ عن حكمة بالغة. واليوم حين تشن في العالم الغربي حملة قاسية على معاقرة الخمر، وحين يحاول الغرب أن يضع حداً للقمار عن طريق التحريم والتعقيد، هل يستطيع أحد أن يلوم الإسلام لإيصاده في عنف (بابيْ الحظر) هذين، ولمحاربته إياهما بوصفهما سببين في إفساد الروح والثروة جميعاً؟ إنّ القرآن (يعتبر) الاقتصاد فضيلة، ولكن ليس هذا فحسب، فنحن نقرأ في الكتاب العزيز عن تحريم القمار والربا.

---

[٢٥] المرجع السابق، ص٨٤.

[٢٦] المرجع السابق، ص٨٦-٨٧.

أفلا يجد المرء نفسه مضطراً إلى القول إنّ حكمة الله تشرق في هذا المنع للمكاسب غير الشرعية؟"[٢٧]

هناك الرؤية الحرّة المنفتحة لسلوك الإنسان الديني قبالة الله سبحانه، أو بمعنى أدق: (الباب المفتوح) للعودة ثانية إلى الطريق، بمجرد أن تصدق النية ويصحّ العزم. إنّ قبول التوبة ملمح أصيل من ملامح هذا الدين، وهو على النقيض تماماً مما تقول به النصرانية عن الخطيئة التي تحيط بالإنسان من أقطاره الأربعة، التي لن يقدر هو شخصياً على كسر حلقتها المحكمة، فيجيء المسيح النبي (عليه السلام) نيابة عنه لكي يخرجه منها. فالتوبة في الإسلام فعل إرادي حرّ، وقبولها الدائم يعكس من جهة أخرى طبيعة العلاقة -في التصوّر الإسلامي- بين الله سبحانه والإنسان. إنها الألفة والود والرحمة وإرادة الخير والفلاح للإنسان، بمنحه الفرصة التي تتكرر ألف مرة من أجل الخلاص: "إن الله لا يوصد سبيله في وجه أحد، حتى في وجوه الآثمين. إنه يضفي على كل أمرئ القدرة على القيام بالعمل الصالح. والإنسان في علاقته بالله يمكن تشبيهه بالمسافر الذي يرتكب خطأ في الصحراء، فيما هو يبحث عن الطريق التي تقوده إلى غايته الأخيرة التي إليها يقصد. فأما الذي يستحق، فبفضل إيمانه وعمله الصالح رحمة الله وعطفه، فسوف يجزيه الله بالهداية، في حين أن الله يتخلى عن ذلك الذي لا ينصرف إلى العمل الصالح، ويتركه وشأنه. إنّ الله لن يمدّ يده إليه، ولكنه في الوقت نفسه لن يكون هو الذي يدفع به إلى طريق الشر."[٢٨]

تواصل (فاغليري) تحليلها لهذه المسألة لكي تتحدث عن جانبها الآخر الذي ألمحنا إليه قبل قليل: "هذا الإله القادر على كل شيء، المستعد لإنزال العقاب، هو أيضاً الرحيم، الحافظ لعباده، المدافع عن اليتيم، هادي الآثم إلى سواء السبيل، المحرر من الألم، صديق الفقير، السخي المستعد للغفران. إنه يصغي، إنه يغدق نعمه لأن الخير بيده. ورحمة الله من الفكرات الأكثر وروداً في القرآن، وصفتا (الرحمن) و (الرحيم) اللتان

[٢٧] المرجع السابق، ص٨٩-٩٠.

[٢٨] المرجع السابق، ص٥١-٥٢.

تستهل بهما كل سورة من سوره تمثلان، عملياً، الفكرات الأساسية في النصّ كلّه. والله لن يضنّ ببركته على الآثم الذي يتوب... ورحمته وسعت كل شيء، وهو نفسه [سبحانه] قد أمر بأن تكون الرحمة قانوناً لا سبيل إلى خرقه."[٢٩]

وهناك النزعة الواقعية للإسلام، تلك التي تسعى إلى تحويل التصوّر العقدي، أو النظرية بالتعبير الغربي، إلى واقع معيش، وممارسة منظورة، والتزام عملي مشهود، عن طريق عدم الاكتفاء بالأطروحات الفلسفية، وإنما موازاتها بالقانون، والمؤسسة، بالتشريع والسلطة التي لا يمكن -من دونها- تحويل العقائد إلى حياة معيشة، أو إنزالها من نطاقها الروحي إلى الشارع والبيت والمدينة: "إن علينا أن نقدم أعمق إعجابنا إلى دين لا يكتفي بنظرية ملائمة لمطامح الطبيعة البشرية، وبإقامة شريعة تتألف من أسمى القوانين التي يستطيع الإنسان الحياة وفقها، ولكنه يذهب إلى أبعد من ذلك فينادي بفلسفة حياة؛ دين يقيم مبادئ الأخلاق الأساسية على أساس نظامي وإيجابي. دين يفرغ واجب الإنسان نحو نفسه ونحو الآخرين في قواعد دقيقة قابلة للتطوير وملائمة لأسمى الترقي الفكري. دين يقدم، فوق ذلك كله، دعماً لهذه النواميس. إنّ سلطان مثل هذا الدين على حيوات الناس عموماً، وبصورة أخص على حياة الأميين، سلطان موصول وسليم في وقت واحد؛ لأن المفاهيم الأخلاقية لا قيمة لها عند هؤلاء ما لم يكن منصوصاً عليها في صراحة القانون ودقته، وما لم تحمل معها عقوبات واضحة محددة أحسن تحديد. إنّ الإسلام يحقق هذا المثل الأعلى في الأديان. فما أن أدرك الإسلام أن حاجة الطبيعة الإنسانية الأساسية هي إلى الهداية بالسلطان والحكم أكثر من حاجتها إلى الهداية بالعظات والمبادئ التجريدية، حتى راح يخاطبها في لغة الأمر الإيجابي المنبثق من قوة مطلقة. وهذا سبب آخر من أسباب نجاحه العظيم. وإذا كان الإسلام قد وفق إلى خلق أمة موحدة قوية مؤسسة على المبادئ الأخلاقية في شبه الجزيرة العربية، حيث سادت فوضى ليس كمثلها فوضى، وحيث كانت فكرة الحكومة كمؤسسة اجتماعية مستقلة مجهولة بالكلية، وحيث كان أيما شكل من

[٢٩] المرجع السابق، ص٥٢-٥٣.

أشكال السلطة البشرية (يعتبر) غير محتمل، وحيث كانت القسوة هي القاعدة، وحيث لم يكن القتل والسرقة جريمتين يعقاب عليهما، ولكن (مجرّد) عملين يستدعيان الأخذ بالثأر، فإن ذلك ما كان ليتم إلاّ لأن الإسلام كان قانوناً ودیناً في وقت واحد."[٣٠]

وهناك رَفْضُ الإسلام للدجل والخرافة، واحترامه للعقل، وتأكيده على المنهج والدليل والبرهان، وعدّ ذلك كله من أهمّ القنوات الفعالة لإقامة بنيان الدين واكتشاف حكمته البالغة، والتعامل معها بالرضا والقبول: "إن التأمل العقلاني أساس الإسلام. وقد رأينا من قبل أن الإسلام، لكي يوقظ في الإنسان الإيمان بإله واحد، لا يلجأ إلى المعجزات، ولكن إلى ملكة التفكير العادية عند الإنسان. وفي ما بعد، عندما أراد الإسلام أن يوقظ في الناس الإيمان بالرسل والكتب المترلة، وقدم تلك المعجزة الكبرى، القرآن (وهو في ذات نفسه علم ميسور فهمه، وكلمة الله التي لا يعسر على العقل استيعابها في وقت معاً) لم يتوقع أن يقبل المرء الإسلام بإيمان سلبي من غير ما أعمال لعقله. لقد دعاه، لكي يفهمه، إلى التفكر فيه إلى الحدّ الذي يسمح به العقل والذكاء الإنسانيان، وتحدّاه أن ينكر إعجازه بالإتيان بسورة من مثله... ."[٣١]

على ضوء هذه الحقائق المؤكدة تقرر (فاغليري) متسائلة: "إن ديناً يتخذ من التأمل العقلاني أساساً له، ويفسح مثل هذا الأساس العريض للعقل، ويأمر باصطناع جميع الملكات التي وهبها الله للإنسان، وبالتالي اصطناع تلك الملكة التي (تعتبر) أعظمها على الإطلاق وهي ملكة الذكاء، مثل هذا الدين كيف يمكن أن يكون عقبة في طريق العلم والفلسفة؟"[٣٢]

كلا، وبكل تأكيد "فإن جميع العقائد التي يؤمن بها المسلمون، بالإضافة إلى العقيدتين الأساسيتين وهما: وحدانية الله ورسالة محمد ﷺ، والمقبولة لدى الجماعة

---

[٣٠] المرجع السابق، ص٩٣-٩٤.

[٣١] المرجع السابق، ص١٢٧-١٢٨.

[٣٢] المرجع السابق، ص١٢٨.

الإسلامية، بعد قرون من الدراسة والمناقشة، ليس من طبيعتها بأي حال من الأحوال أن تعوق العلم الحديث أو تعارض الحقائق الفلسفية."[٣٣]

ولقد كانت المعطيات الإسلامية نفسها، على مستوييْ العقيدة والتاريخ، مصداقاً لهذا الوفاق الفذ بين الوحي والعقل، بين الدين والعلم. وليست حضارة الإسلام المتألقة تلك التي وضعت الكثير من تأسيسات الحضارة المعاصرة في دائرتي المنهج والكشوف، سوى ثمرة مؤكدة لهذا اللقاء الضائع في المذاهب والأديان الأخرى.

ومعروف للكثيرين ذلك الإعجاز الباهر الذي جعل كتاب الله لا ينطوي على أي مقطع أو آية أو إشارة ترتطم ومعطيات العلم الحديث، وساق هذا الأخير لكي يؤكد بلغة القرنين الأخيرين، وكشوفهما ومناهجهما، معطيات هذا الكتاب المدهش والدين الذي قام عليه.

خامساً: البعد الاخلاقي في سيرة الرسول ﷺ

تنقّب (فاغليري)، وهي تستعرض سيرة رسول الله ﷺ، عن القيم الخلقية التي تزدحم بها صفحات هذه السيرة المتفرّدة، فبالنسبة للنبي ﷺ عموماً، فإن هذه القيم تشكل مفتاح شخصيته المصنوعة على عين الله سبحانه، كما أنها تعيننا إلى حد كبير على إدراك أسباب الانتصار في نهاية الأمر، في حالات تاريخية تكاد تكون جميعاً في غير صالح الأنبياء عليهم السلام!

ويبدو أن صدق محمد بن عبد الله ﷺ وتوحده الأخلاقي هما مركز الثقل في سلوكه قبل الرسالة وبعدها. وهما -أيضاً- نقطة الجذب والتعالق في شخصيته، التي كسبت إعجاب ومحبة واحترام الخصوم والأصحاب على السواء.

تقول (فاغليري): "حاول أعداء الإسلام، وقد أعماهم الحقد، أن يرموا نبي الله ﷺ ببعض التهم المفتراة. لقد نسوا أن محمداً كان قبل أن يستهل رسالته موضع الإجلال

[٣٣] المرجع السابق، ص٥٩-٦٠.

العظيم من مواطنه بسبب أمانته وطهارة حياته. ومن عجب أن هؤلاء الناس لا يجشمون أنفسهم عناء التساؤل، كيف جاز أن يقوى محمد ﷺ على تهديد الكاذبين والمرائين، في بعض آيات القرآن اللاسعة، بنار الجحيم الأبدية، لو كان هو قبل ذلك [وحاشاه] رجلاً كاذباً؟ كيف جرؤ على التبشير، على الرغم من إهانات مواطنيه، إذا لم تكن ثمة قوى داخلية تحثه، وهو الرجل ذو الفطرة البسيطة، حَثّاً موصولاً؟ كيف استطاع أن يستهل صراعاً كان يبدو يائساً؟ كيف وُفّق إلى أن يواصل هذا الصراع أكثر من عشر سنوات في مكة، في نجاح قليل جداً، وفي آخران لا تحصى، إذا لم يكن مؤمناً إيماناً عميقاً بصدق رسالته؟ كيف جاز أن يؤمن به هذا العدد الكبير من المسلمين النبلاء والأذكياء، وأن يؤازروه، ويدخلوا في الدين الجديد، ويشدوا أنفسهم بالتالي إلى مجتمع مؤلف في كثرته من الأرقاء، والضعفاء، والفقراء المعدمين، إذا لم يلمسوا في كلمته حرارة الصدق؟ ولسنا في حاجة إلى أن نقول أكثر من ذلك، فحتى بين الغربيين يكاد ينتقد الإجماع على أن صدق محمد ﷺ كان عميقاً وأكيداً."[٣٤]

وتحاول (فاغليري) أن تجرب منظورها الأخلاقي، في واحدة من الممارسات التي آثار الخصوم بصددها الكثير من الغبار، وهي علاقة الرسول ﷺ بالمرأة من خلال الزواج.

إن (فاغليري) تقودهم من أنفوهم إلى الواقعة التاريخية نفسها، هنالك حيث لا يتبقى أيما مجال لمماحكة أو توهّم، وحيث تكون الممارسة التي يراها الجميع، ويشهد بها الجميع، هي الحكم الفصل: "إن محمداً ﷺ طوال سني الشباب التي تكون فيها الغريزة الجنسية أقوى ما تكون، وعلى الرغم من أنه عاش في مجتمع كمجتمع العرب، حيث كان الزواج -كمؤسسة اجتماعية- مفقوداً أو يكاد، وحيث كان تعدد الزوجات هو القاعدة، وحيث كان الطلاق سهلاً إلى أبعد الحدود، لم يتزوج إلاّ من امرأة واحدة ليس غير، هي خديجة [رضي الله عنها] التي كان سِنّها أعلى من سِنّه بكثير، وأنه ظل طوال خمس وعشرين سنة زوجها المخلص المحب، ولم يتزوج كَرّة ثانية، وأكثر من

[٣٤] المرجع السابق، ص٣٧-٣٨.

مرة، إلا بعد أن توفيت خديجة، وإلا بعد أن بلغ الخمسين من عمره. لقد كان لكل زواج من زوجاته هذه سبب اجتماعي أو سياسي، ذلك بأنه قصد من خلال النسوة اللاتي تزوجهن، إلى تكريم النسوة المتّصفات بالتقوى، أو إلى إنشاء علاقات زوجية مع بعض العشائر والقبائل الأخرى ابتغاء شق طريق جديد لانتشار الإسلام. وباستثناء عائشة [رضي الله عنها]، ليس غير، تزوج محمد ﷺ من نسوة لم يَكُنَّ عذارى، ولا شابات، ولا جميلات، فهل كان لك شهوانية؟ لقد كان رجلاً لا إلهاً. وقد تكون الرغبة في الولد هي التي دفعته أيضاً إلى الزواج من جديد؛ لأن الأولاد الذين أنجبتهم خديجة [رضي الله عنها] له كانوا قد ماتوا. ومن غير أن تكون له موارد كثيرة اخذ على عاتقه النهوض بأعباء أسرة ضخمة، ولكنه التزم دائماً سبيل المساواة الكاملة نحوهن جميعاً، و لم يلجأ قط إلى اصطناع حق التفارق مع أي منهن. لقد تصّرف متأسياً بسنة الأنبياء القدامى [عليهم السلام] مثل موسى وغيره، الذين لا يبدو أن أحداً من الناس يعترض على زواجهم المتعددة، فهل يكون كل شيء عن حياة محمد ﷺ العائلية؟"[٣٥]

ومع الصدق والتوحّد، هنالك خصيصتا الصبر والتسامح، وهما تتآلفان أشد ما تتآلفان في شخصية الأنبياء (عليهم السلام)، على الرغم من أنهما قد توهمان بإطالة الطريق، وتجاوز صيغة الحسم الذي يختزل حيثيات الصراع ومفردات الزمن والمكان، ويقرب من الهدف المنشود، إلا أن نظرة متأنية للمسألة تقود إلى استنتاج ربما يكون معاكساً؛ إذ بالصبر والتسامح قدر الأنبياء (عليهم السلام) على كسب المعركة في نهاية الأمر، فهي ليست معركة على ظاهر الأرض فحسب، ولكنها تصارع من أجل كسر حواجز النفس البشرية، والتوغل بعيداً لقطع جذورها الملتحمة بالشرّ. ولن يتحقق هذا بضربة سيف، رغم أن هذه تُعدُّ واحدة من صيغ العمل الضرورية إلى دين جاد يحترم نفسه ويقدّر حيثيات الجغرافيا والتاريخ، ولكنه يتأتى، قبل هذا، ومعه، وبعده، بالصبر والأناة. من يستطيع أن يقول إنّ محمداً بن عبد الله ﷺ لم يشكم نزعات القوة والثأر

[٣٥] المرجع السابق، ص٩٩-١٠١.

والانتقام بسماحة فريدة قلت نظائرها في سلوك الرجال الكبار؟ "لقد كان محمد ﷺ المتمسك دائماً بالمبادئ الإلهية، شديد التسامح وبخاصة نحو أتباع الأديان الموحدة. لقد عرف كيف يتذرع بالصبر مع الوثنيين، مصطنعاً الأناة دائماً، اعتقاداً منه بأن الزمن سوف يتم عمله الهادف إلى هدايتهم وإخراجهم من الظلام على النور... لقد عرف جيداً أن الله لابدَّ أن يدخل آخر الأمر إلى القلب البشري."[٣٦]

تواصل (فاغليري) حديثها عن هذه القيمة الأخلاقية المتألقة فتقول: "يوم نزلت الآيات التي تعالج موضوع التسامح، لم يكن الرسول ﷺ رجلاً حالماً تتبعه مجموعة صغيرة من الحالمين مثله، و لم يكن فيلسوفاً مشلولاً بوعيه لعدد متباين من القوى، ولكنه كان رجلاً في أوج قوته، رجلاً يرأس دولة رفيعة التنظيم، ويقود جنوداً صالحين مطيعين، كان في ميسوره أن يستخدمهم ضد أي امرئ يقع اختياره عليه."[٣٧]

فذلك هو المحك، أو تحدّي التجربة. والسماحة لن تحمل معناها الحقيقي وقدرتها على الفعل عندما لا يملك أصحابها ودعاتها شيئاً من الأمر، بل عندما يجد المرء نفسه في قلب السلطة، ممتلكاً تماماً لزام القدرة، متحققاً بأسباب القوة، وليس غير الأنبياء (عليهم السلام) من يقدر على حماية كفتي الميزان من أن تشيل إحداهما فتهبط الأخرى.

إنّ المعادلة صعبة باهظة، والإغراء ساحق لا يطاق، ولكن النبي الذي يعرف جيداً "أن الله لابد أن يدخل آخر الأمر إلى القلب البشري" هو وحده -سبحانه- القادر على تحقيق المطلوب الذي تحدث عنه الفلاسفة والأدباء فأطالوا الحديث: "ذلك كان المثل الأعلى الذي أراد محمد ﷺ أن يحققه بأي ثمن، فقاتل قتال الرجل الوديع ضد الغطرسة والطغيان، أو قل قتال الرجل الذي لا يرغب في الحرب ولكنه مكره على منازلة أولئك الذين أصرّوا على تدميره بالقوة،" لقد نهض بالمهمة "واثقاً من أنه كان

---

[٣٦] المرجع السابق، ص٣٣.

[٣٧] المرجع السابق، ص٣٤.

يمهد السبيل لإيصال الحقيقة إلى كثير من النفوس، ومن أنه كان مكلفاً بأي يهدي الناس سواء السبيل في غمرة الظلام."[٣٨]

ولا تنسى (فاغليري) أن تذكر حالات استثنائية، كانت تعزز القاعدة ولا تنفيها. وهكذا تجد (فاغليري) أن الردّ على تهمة القسوة التي يحلو للبعض أن يرمي بها رسول الله ﷺ أمرٌ يسير، فـ "محمد ﷺ بوصفه رئيساً للدولة، والمدافع عن حياة شعبه وحرّيته، قد عاقب باسم العدالة، بعض الأفراد المتهمين بجرائم معينة، عقاباً قاسياً، وأن مسلكه هذا ينبغي أن ينظر إليه على ضوء عصره، وعلى ضوء المجتمع الجاني المتبربر الذي عاش فيه. أما محمد بوصفه المُبشِّر بدين الله، فكان لطيفاً ورحيماً حتى مع أعدائه الشخصيين. لقد امتزجت في ذات نفسه العدالة والرحمة، وهما اثنتان من أنبل الصفات التي يستطيع العقل البشري تصوّرها. وليس من العسير تأييد هذا بكثير من الأمثلة المنشورة في سيرته."[٣٩]

وما تلبث (فاغليري) أن تخلص إلى أن السُّنة النبوية التي تمثل الحصيلة المنظورة لعصر الرسالة على مستوى الفعل والكلمة والممارسة والتعليم، إنما تمثل "أقوى إسناد لمفهومٍ في الحياة سليم" وإلى "أن الأحاديث النبوية تنطوي على أسمى المفاهيم الأخلاقية."[٤٠]

خاتمة:

إننا هنا إزاء كتاب يتعامل بموضوعية صارمة مع الإسلام عبر صفحاته كافة. وإذا كان بعض المستشرقين يمزج السمّ بالدسم، لأسباب شتى لا يتّسع المجال لسردها، فإننا هنا إزاء باحثة آلت على نفسها أن تتحرّر من كل عوامل الشدّ التي مارست تشويهها المعروف للمعطى الاستشراقي، وأن تقدم صورة متألقة عن الإسلام: انبثاقه في جزيرة

[٣٨] المرجع السابق، ص٣٠.

[٣٩] المرجع السابق، ص٣٨-٣٩.

[٤٠] المرجع السابق، ص٨٧-٨٨.

العرب "مثل ينبوع من الماء الصافي النمير"، لتحقيقه الأمن والسلام "لبلد ظل طوال قرون وقرون ميداناً لمعارك موصولة يقتتل فيها الأخوة"، ومضيّه قدماً لتحقيق أخوة الإنسان للإنسان في الأرض كلها، ولتحريره وجدانياً واجتماعياً وإنسانياً من سائر الطاغوتيات والصنميات والكوابت التي كانت تأسره وتشل فاعليته، واعتماده منهجاً واقعياً فاعلاً لاستئصال ظاهرة العبودية والرِّق، ذات العمق التاريخي والتقاليد الموغلة. والتحذير من التعامل مع شعائر الإسلام الخمس من وجهة النظر الخارجية "بل درسها درساً دقيقاً لاكتشاف السرّ الذي يجعل في ميسور تلك الشعائر أن تظهر روح المؤمن وتساعدها على السموّ تدريجياً نحو الله". والتأكيد على قدرة الشريعة على الالتحام مع الحياة والإنسراب في شرايينها كافة "إن جميع مظاهر الحياة الجماعية والشخصية خاضعة لأحكامها، وأنها لتهدف إلى ربط كل عمل من أعمال الفرد بواجباته الدينية. إن جميع فروع القانون تتمثل في الشريعة الإسلامية". والتأكيد على تلاؤم هذا الدين مع الإنسان بسبب جملة من المزايا والخصائص التي يتفرّد بها من دون سائر المذاهب والأديان المحرفة: الوضوح، والسهولة واليسر، ومراعاة قدرة الإنسان على الاحتمال، والتقييم المؤكد للحياة الأرضية وعدّها طريقاً إلى الآخرة، والاعتراف بالحاجات الجسدية للإنسان، والشمولية، والتأكيد على المسؤولية الخلقية بوصفها حجر الزاوية في السلوك الفردي والجماعي، والنزعة الواقعية، ورفض الإسلام للرجل والخرافة، واعتماد العقلانية أساساً للدين.

ثم ما تلبث (فاغليري) أن تنهي كتابها بتحليل مسهب لمنظومة القيم الخلقية التي تزدحم بها صفحات سيرة رسول الله ﷺ فيما يردّ على قول القائلين بتضحّل هذه القيم في الإسلام "وحسبنا أن نقول إن هناك أنواعاً من الصراع لا يمكن الفوز فيها ما لم يكن ثمة عامل أخلاقي بالغ القوة، إيمان دائم بعدالة القضية، ولقد كان الإسلام يملك هذا العامل".